المسرح والحركات الثقافية في الجزائر مع بداية القرن العشرين

د/ صـــالح لمباركية
جامعة الحاج لخضر بباتنة

ظهرت الحركة الفكرية والثقافية في المجتمع الجزائري متأخرة بالقياس إلـــى مرحلة المقاومة المسلحة التي انطلقت مباشرة بعد الاحتلال التـــي كانـــت ردة فعـــل مـــن الشعب الجزائري ضد العدوان الفرنسي الغاشم طوال سبعين سنة من المقاومـــة الشـــعبية والانتفاضة العارمة في شتى أنحاء الوطن ، ولعل أبرزها ثورة الأمير عبد القـــادر ســـنة وثورة أولاد سيدي الشيخ في غرب الوطن ، وثورة لالة أنسومر وثورة أحمـــد بـــاي فـــي شرقه ، وغيرها من الثورات التي قاومت الاستعمار الفرنسي بكل بطولة وعزم، ولما لـــم يقدر الشعب الجزائري على تحقيق أهدافه بالوسائل المسلحة إتجه بعض أبنائـــه خاصـــة أهل الفكر والثقافة إلى سلوك سبل أخرى لتحقيق أهدافهم فيمموا وجهتهم للعمـــل الثقـــافي الذي كان ظاهره سلميا وباطنه يعمل على تشكيل وتهيئة الظروف من أجل إيجاد القاعـــدة الحقيقية لبناء قوة تكون كفيلة لدحر العدو وتحرير الوطن ، على الـــرغم مـــن أن طبيعـــة المجتمع الـــجزائري إبان الفترة التركية وحتى بداية الاحتلال الفرنسي كانت طبيعة شعب مسالم ومهادن ، ميـــال إلـــى الحياة الهادئة التي تتسم بالرخاء والنعـــيم وحـــب الفنـــون والتفاني في العمل وعلى لكسب العيش الكريم ، فأصبحت حياتهم رغـــدة آمنـــة محفوفـــة بالغناء والرقص ، وموائد الأكل ومجالس الطرب ، ولنا في قصور المدن وبيوتها أصـــدق مثال على ذلك ، إذ أنها تتربع على بهو فسيح مزركش بالرخام والفسيفســـــاء تتوســـطها نفورة ماء عذب رقراق ، وتقام فيها مع كل مساء مجالـــس الإنس والطـــرب يحييهـــا المنشدون والعازفون والمغنون والراقصات . وتتوالى سنين الاحتلال الفرنسي الســـوداء ، فتحولت حياة الأفراد في المجتمع الجزائري من نعيم ورقة إلى شـــدة وغلظـــة وقســـوة ، فصارت حياتهم صعبة ومريرة ، فاستجابوا لمقتضيات الحياة الجديـــدة هـــذه المفـــروض عليهم، فتحول معظم السكان إلى بدو رحل فارين رافضين مقاومين ومتربصـــين بالعـــدو وغير آمنين ولا مستقرين . وهكذا ظل الشعب الجزائري بعيدا عن خضم الحياة الفكريـــة والثقافية المتطورة المزدهرة في أوربا بدعوى أنها فكر وثقافة العـــدو الظـــالم الطـــاغي ، وتؤكد كل الشواهد أن أفراد الشعب الجزائري لم يحتك بالفرنسيين (مـــدنيين وعســـكريين)

إلا مع بداية القرن العشرين بعد أن تحولت المعطيات السياسية مع العدو الفرنسي ، حيث خفت شدة المقاومة المسلحة وبدأت سمات التلاقي والحوار والثقة تبدو في الأفق حيث يتمثل هذا التقارب الجديد للمقاومة في التقرب من أجهزة الاستعمار والتعامل معها عن قرب والاستفادة من كل ما يمكن أن يخدم البلاد ويرفع الظلم عن السكان ويضعف نشاط المعمرين الغزاة . ولعل أول ما حرص عليه أفراد الشعب الجزائري هو مطالبتهم بحقهم في التعليم والسماح للجزائريين بالتمدرس ، علما بأن أعضاء من الحكومة الفرنسية نفسها قد دعوا إلى ذلك منذ سنة 1883 ونشر مبدأ لإلزام المدرسي للجزائريين ومحاولة تطبيق ذلك على الواقع الميداني ، لأن تعليم الجزائريين ضرورة ملحة بالنسبة للحكم الاستعماري ، لأنه يرى في التعليم وسيلة لاستعمار العقول والأذهان وغزو الأدمغة. وهكذا اتضحت سياسة الإستعمار الفرنسي وطريقته في معاملته للجزائريين ، ((لقد تم الاحتلال الأول للجزائر بقوة السلاح وانتهى بنزع السلاح من القبائل ، ويتضمن الاحتلال الثاني قبول إدارتنا وعدالتنا من قبل أهل البلد ، أما الاحتلال الثالث فسيتم من خلال المدرسة)). وعلى هذا النمط كان الحكام الفرنسيين يديرون شؤون البلد ، أما بعض أولئك الجزائريين الذين يؤيدون الفكرة فقد كانت بالنسبة لهم بداية لعملية جديدة للمقاومة ، وهي مقاومة بالحوار ، مقاومة تبناها كثير من المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية والعربية أمثال أحمد بن يوسف وسي علاوى بن يحي وأحمد رحمات ومحمد بن رحال ، واعتبروا ذلك ضرورة أملتها المرحلة التاريخية ولصالح الوطن ، ولكن فكرة التعليم التي سعى إليها النظام الاستعماري الفرنسي وعمل على تحقيقها بعض المثقفين الجزائريين ، لم تلق نجاحا مشجعا لدى السكان الجزائريين خاصة داخل الوطن ، وإن سجل بعض النجاح في المدن الكبيرة كالعاصمة ووهران وقسنطينة ، وهذا التعليم بالنسبة للأهالي ((لم يطلبوه ، لأنه يعتبر تهديدا ضمنيا للقيم الثقافية التي ما زالوا يحملونها)) ، وتمسكوا بمدارسهم القرآنية وبالزوايا كمراكز اشعاع للعلم والمعرفة . وبذلك انقسمت (الأنتيليجانية) الجزائرية إلى ثلاث فرق ، هي : فرقة تنادي بالاندماج وتعمل جاهدة إلى الانضمام تحت جناح الاستعمار والتثقيف بالثقافة الأوربية ، وفريق يحذر من عاقبة هذا المنحنى الخطير الذي — بلا شك — يسعى إلى سلخ الهوية عن الشعب الجزائري وإدراجه نحو الفرنسية والتفرنس ، أما الفريق الثالث فهو معتدل ويدعو إلى العمل والاستفادة من الحضارة الأوربية والأخذ من

المستعمر ما ينير العقل ويغذي الفكر ، وهذا ما ذهب إليه كثير من رواد الفكر الجزائري أمثال محمد بن رحال الذي يقول : ((إن الشيء الذي ألفه المسلم هو تلك المدارس القرآنية من حيث أنه تعود على أخذ هذه المعاني الأولية وتعليماتها كذلك ، فمضاعفة المدارس الفرنسية أمر مقبول وجيد ، لكن إهمال المدارس العربية أمر لا يغتفر ومخالف لحسن التصرف السياسي)) ، إلا أن الحكومة الفرنسية ترفض هذا الاعتدال وهذا الرأي ، وتحكم على اللغة العربية ومدارسها وعلى الدين الإسلامي بالقضاء المبرم والزوال. وهي ترفض نهائيا تعليم اللغة العربية للأهالي ، وهذا ما يتجلى في رأي أحد ساساته حين يقول: ((عندما تريد أمة أن تصل إلى تسريب حضارتها إلى أمة أقل تطورا، فإن ذلك يكون بنشر لغتها التي يجب أن ترتبط بها للحصول على هذه النتيجة)) . واحتدم الصراع بين النخبة المثقفة المعتدلة والداعية إلى التمسك والمحافظة على التراث العربي الإسلامي من جهة ، وبين الاندماجيين والنظام الاستعماري من جهة ثانية ، ثم إن النظام الفرنسي كان واعيا ومدركا لما لهذا الخلاف من فوائد لترسيخ أركان الاستعمار وتوطيده داخل البلاد والحكم على الأهالي بالفقر والجهل والإبادة .

وقد نتج من هذا الصراع تطرف كبير وتباين في الآراء ، فبعد عدة سنوات من ظهور فكرة التعلم في المدرسة الفرنسية لم تبرز إلا نخبة من مثقفين جزائريين بهرتهم ثقافة المستعمر فراحوا يتنكرون لأصولهم الجزائرية فأمسوا ((انتلجانسيا هشة نخبة صغيرة دون قاعدة اجتماعية مهمة ، توشك أن تنقطع عن المجتمع الجزائري ، وتندمج بشكل فردي في المجتمع الفرنسي)). وانطلق كثير من العلماء والمفكرين الجزائريين مندفعين لحماية اللغة العربية والإسلام من التيارات الغربية وحملات الدعاية الفرنسية الساعية إلى تغريب العقل الجزائري وتحطيم أركانه ، وقد عمد هؤلاء المفكرون إلى بعث التاريخ وأحيائه مع توضيح نوايا الاستعمار وإبراز أهدافه وأفكاره المسمومة التي لم يكن غرضها رفع الجهل عن الأهالي أو تزويدهم بالعلوم والمعارف ، بقدر ما كان الهدف هو نسف الهوية الوطنية وتمزيق أواصر الروابط بين المجتمع لذلك ((فإن حركات اليقظة والنهضة ذات الطابع الإسلامي كانت مقدمة عنيفة لحركات العمل الوطني والسياسي التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى)). وهذا التصدي القوي في وجه الاندماج الكلي للأهالي دفع بعض المفكرين إلى التحذير واليقظة من العواقب الوخيمة على الوطن ، وسلك المفكرون أنفسهم كل سبل المواجهة والوقوف في وجه العدو

والذين يسيرون خلفه . فأنشأوا الجمعيات والنوادي الفكرية والفرق الفنيـة ذات الصـبغة الثقافية والترفيهية ، فقد ظهرت جمعيات وأسست نواد فكرية ، وظهرت عناوين لصـحف أسبوعية ويومية بالعربية والفرنسية وكان دور هذه المؤسسات الثقافية والفكريـة والأدبيـة يتمثل في نشر مظاهر الثقافة العربية بقراءة الأشـعار وإلقـاء المحاضـرات والنـدوات الأدبيـة المتنوعة ، مع الاهتمام بالجوانب السياسية وبث الروح الوطنية فـي الأهـالي بإقـامة الـمهرجانات الخطابية والحفلات بالـمناسبات الدينية . ولعل من أبـرز الـذين أرسوا دعـامة الفن الـمسرحي في الـجزائر وحـاولوا إدراجـه ضـمن الوسـائـل التثقيفية فـي الأوسـاط الشـعبية هو الأمير خالد الذي نشأ في كنف الأسرة الجزائريـة المسلمة والتي وقفت في مواجهة العدو الغاصب ابتداء من الشيخ (محـي الـدين) والـد (الأمير عبد القادر)، وبحكم تواجد الأمير (خالد) بفرنسا للدراسة ، فقـد اضـطلع علـى أهمية المسرح في ايقاظ الأمة ، فطلب من الممثل المصري (جورج أبيض) حين التقـى به في باريس سنة 1910 أن يبعث لـه ببعض المسرحيات لتمثيلها فـي الجزائر ، وعند عودته إلى القاهرة أرسل عدة مسرحيات منها ، مسرحية ماكيث لشكسبير تعريب محمـد عفت المصري، ومسرحية المروءة والوفاء لخليل اليازجي، ومسـرحية شـهيد بيـروت للشاعر حافظ ابراهيم . وأسس الأمير خـالد في السنة نفسها ثلاث جمعيات فنية، الأولـى في العاصمة والثانية في البليدة والثالثـة في المديـة. وقامـت هـذه الجمعـات بتقـديم عروض مسرحية ونشاطات طوال السنوات اللاحقـة، ومما سبق يمكن التوصل إلى نتائج أهمها:

كان الاهتمام بالثقافة العربية عند الجزائريين اهتماما كبيرا .

كان الـمثقفون في الجزائر خلال هذه الفترة، منشئين لفرق فنية وعاملين على ترقيتهـا بالإسهامات فكرية وثقافية وسياسية.

إن النشاط الفكري والثقافـي لم يقتصر على العاصمة فقط بل تعداها إلى مدن داخليـة ، كالبليدة والمدية وقسنطينة وتلمسان وبسكرة .

وعلى الرغم من هذا الاحتكاك بالثقـافة الفرنسية من قبل الـجزائريين فإن ذلـك لـم يؤهلهـم إلى مستوى المواطنة الفرنسيـــة ولـم يعـط لــهم أي امتيـازات مدنيـة أو عسكريـة ، بل كثير من المشتغلين بالفنون والذين يحـاولون التعبيـر عـن قضـايـاهم الأساسية لاقوا من السلطـات الفرنسية معاناة الملاحقة والحراسة والعقـاب كالتشـريد أو

النفي أو الغرامات المالية ، حتى أن التعبير في أعمدة الصحف أو الخطب في المحافل أو اللقاءات أو العروض المسرحية القليلة التي كانت تقام في مدن الجزائر ،كانت تحت إشراف السلطة الاستعمارية وتتم بموافقتها وبرعاية صارمة ، وكثيرا ما صودرت صحف في أعدادها الأولى ، وقد عمد الحكام الفرنسيون إلى نفي نشطاء الثقافة أو توقيفهم أو زجهم في السجون. وكان من الضروري أمام هذه الضغوط في توجيه النخبة المثقفة في الجزائر أن يبحث هؤلاء عن إيجاد سبل للتعبير والمقاومة بقدر كبير حتى لا تجد الأجهزة الاستعمارية وسائل للقضاء على الهوية العربية الإسلامية في الجزائر ، لذلك نشطت الجمعيات في أعمالها الثقافية والاجتماعية والسياسية وتعددت نشاطات النوادي كعقد اللقاءات الفكرية والثقافية والرياضية . وما دام المسرح لا يخرج من هذا الإطار الثقافي العام ، ومن خلال عرضنا لأهم هذه القضايا يمكن أن نقول أن هناك بداية للفن المسرحي قبل مجيء (جورج أبيض) للجزائر ، هذه الزيارة التي يعدها الباحثون البداية الفعلية للمسرح في الجزائر ، ذلك أن كثيرة هي الآراء التي تقول أن المسرح في الجزائر بدأ بمجيء فرقة جورج أبيض من مصر إلى الجزائر . ولكن كيف يمكن إغفال كل هذه الحركات الثقافية السابقة لهذا التاريخ ، من نشاط الجمعيات والنوادي والفرق الفنية بشتى أنواعها ، الموسيقية والمسرحية والحفلات واللقاءات والتجمعات في المناسبات والأعياد . ثم إن الأعمال المسرحية المقدمة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من قبل الكتاب الفرنسيين ، والكتاب الجزائريين والفرق المسرحية التي ظهرت ، كانت كلها بلا شك لبنات في بناء صرح المسرح في الجزائر ــ وهي بلا منازع ــ عبرت عن مرحلة من مراحل المجتمع الجزائري ، ثم إن الحركة الثقافية في الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى نشطت نشاطا ملفتا للنظر، والذي تمثل في الإصدارات العديدة لعناوين الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات ، وكذلك بزوغ العديد من الجمعيات الخيرية والأدبية والثقافية ، وكذا النوادي المختلفة الرياضية والكشفية . وعلى كل فإن الاتصال بالشرق أو زيارة المشارقة للجزائر أمر كان له أهميته وأثره البالغ في بعث الأمل للأهالي والسكان الجزائريين . فالاتصال بالشرق كان منذ زمن بعيد ، وقد عمد عدد كبير من علماء العرب والمسلمين وأدبائهم زيارة الجزائر لنشر العلم والإطلاع على أحوال إخوانهم الجزائريين ، والوقوف معهم ومساعدتهم في محنتهم، فمن مصر جاءت إلى الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شخصيات عديدة هامة أمثال الشيخ (محمد عبده) و(محمد فريد)و(جورج أبيض) و (أحمد شوقي) و (فاطمة رشدي) و(ويوسف وهبي) . وكان لعودة

الـجزائريين إلـى بلادهم من المشرق فرادى وجماعات دورا هاما في إيقاظ الوعي الفكري والثقافي والديني والسياسي للأهالي

وهكذا فإن الحركة الثقافية والفكرية في الجزائر مع بداية القرن العشرين بدأت تنشط إلى درجة أن كثيرا من العاملين فيها حاولوا بجهود جبارة نقل كل ألوان التمدن والتحضر من الشرق والغرب إلى الجزائر ، .

ويقر علالو في مذكراته أن المسرح الجزائري ظهر في هذه الفترة و ((ظروف متقلبة من عمر النهضة الوطنية حيث ولد المسرح الجزائري ، الذي كان عنصرا هاما في ثقافة عصرية))، وهذا دليل على أن الفن المسرح في الجزائر لم يبدأ بمجيء (جورج أبيض) إلى الجزائر كما أشرنا ، بل كان يمارس قبل هذا التاريخ ، وهناك عدة تداعيات سياسية واجتماعية وأدبية دفعت المهتمين بالمسرح إلى إبرازه بشكل كبير وواضح ، حيث أن ((الجزائر دخلت مرحلة عبر عنها الكتاب والملاحظون بمرحلة النهضة في ميادين مختلفة ، فالمسرح كان سيظهر لا محال كما ظهر النادي والصحيفة والمسجد الحر والمدرسة الحرة والأحزاب والجمعيات والتأليف))

وهناك فرق زارت الجزائر قبل فرقة جورج أبيض. الفرق المسرحية التونسية التي قدمت عروضها المسرحية وغنت مع (جوق الأدب التونسي) قبل الحرب العالمية الأولى، ولعل ما جعل أبا القاسم سعد الله يؤكد بأن ظهور المسرح في الجزائر كان سابقا لهذه الفترة - فترة زيارة فرقة (جورج أبيض) للجزائر - لهذا فقد تناول إشكالية تاريخ عودة المسرح بعد الحرب العالمية الأولى وليس ظهوره، وليست ((زيارة الفرقة المصرية بقيادة جورج أبيض هي وحدها التي حركت في الجزائريين الاهتمام بالمسرح)).

ويمكن حصر أهم العوامل التي ساعدت في النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر في النقاط الآتية :

- تطور الأحداث الأساسية في البلاد والتخلي عن السلاح واللجوء إلى الوسائل السلمية.
- ظهور الصحافة ذات الاتجاهات المختلفة وكذلك الجمعيات والنوادي الفكرية والأدبية، والفرق الفنية والرياضية.
- نتشار الوعي السياسي في المجتمع وتألق شخصيات كشخصية الأمير خالد
- الاتصال بالمشرق العربي، والعالم الغربي وتوسع سبل المعرفة والتعليم لدى الشباب الجزائري.